المبحث السادس عشر
في بيان علم نفوس السماوات بأحوال الكائنات

ذهبت الفلاسفة، إلي أن العقول والنفوس الفلكية، كلها عالمة بجميع الأشياء الواقعة، ما هو كائن الأن، وما كان، وما سيكون، لا يغيب عنها شئ منها أبداً، فكل منها منتقش بصور جميع الموجودات، أزلاً وأبداً.

اللوح المحفوظ والملائكة:

وما وقع في كلام الشارع من اللوح المحفوظ، فهو عبارة عنها، ورمز إليها.

لا أن المراد به: جسم مسطح عريض، منقوش بصور الحروف والكلمات، علي ما هو رسم الكتابة، لأن وجود جسم غير متناهي الأبعاد محال، وتصوير غير المتناهي مفصلا بصورة الكتابة، في جسم متناهي المقدار، غير ممكن.

فإن صورتي حرفين في محل واحد، لا يمكن اجتماعهما، بخلاف الصور العلمية، فإنها مجتمعة في محل واحد، غير قابل للإنقسام.

ويقول أيضاً: لفظ " الملائكة " الذي وقع في كلام الشارع، عبارة عن هذه الروحانيات.

والملا الأعلي، والكروبيون [1]، والملائكة المقربون، عبارة عن العقول.

---

(١) الكروبيون : هم أرفع منزلة من الملائكة المقربين، ويسمون بسادة الملائكة.

وهذان متقاربا المعني، لأن الأول من كرب، بمعني دنا وقرب.

وملائكة السماوات: عبارة عن نفوسها.

والقلم: عبارة عن العقل الأول، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم:" أول ما خلق الله تعالى القلم ".

وقال: أول ما خلق الله العقل ".

ووجه مناسبة التعبير عنه به، أن كمالات جميع الممكنات فائضة منه، كما أن نقوش الكتابة فائضة من القلم.

. والعرش: عبارة عن الفلك التاسع، والكرسي:عن الثامن.

وبنوا علي ذلك، بيان سبب الإطلاع علي بعض المغيبات في المنام.

قالوا: النفس الناطقة للإنسان، لكونها في جوهرها من عالم التجرد، كان ينبغي لها أن ينتقش فيها صور الكائنات، كما في النفوس الفلكية.

لكن لإنهماكها في التفكر فيها، تورده الحواس عليها من المشتهيات والمستكرهات، وفرط اشتغالها بجذب الأولي ودفع الثانية، خلت عنها.

فحين تعطلت الحواس بسبب النوم، عن إيراد تلك العوائق عليها، حصل لها نوع اتصال بتلك الجواهر، فينطبع فيها بعض الصور المنطبعة فيها، مما لها زيادة مناسبة معها، كصورة ولده وأهله، وماله وبلده، وما أشبه ذلك.

والصور المنطبعة في النفوس بعضها جزئية، فتنطبع في نفس النائم كما هي، وبعضها كلية، فتحيلها متخيلة النائم إلي صورة جزئية، فتلقيها في

خياله، ثم تنتقل منه إلي حسه المشترك، فيراها جزئية.

فهذه الصورة، إن كانت باقية، كما أخذها من غير تفاوت، إلا بالتحول من الكلية إلي الجزئية، إن كان، لا تحتاج الرؤيا الي التعبير، وإن لم تكن باقية كذلك.

فإن كانت بين الصورة المشاهدة ومأخذها مناسبة، من لزوم أو تضاد.

وبالجملة: تكون المشاهدة، بحيث يمكن ردها إلي مأخذها بلا واسطة، أو بواسطة، فهي أيضاً الرؤيا المعتبرة، لكن هي محتاجة إلي التعبير، أي المجاوزة من شئ الي شئ، إذ هنا يتجاوز بها عن ظاهرها إلي مأخذها، وإن لم يكن بينهما مناسبة كذلك، فهي من أضغاث أحلام لا يعبأ بها.

ومنها ما إذا كانت النفس قبل النوم مشتغلة بشئ، متوجهة إليه جداً، فكثيراً ما يري ذلك الشئ في منامه.

ومنها: ما إذا حدثت صورة محسوس، بسبب في الخيال قبل النوم، فينتقل منه إلي الحس المشترك في حالة النوم، فتشاهدها النفس حينئذ.

ومنها: ما إذا كانت المتخيلة مألوفة بصورة كثيرة الإشتغال بها، فتلقيها في الخيال، فيراها النائم.

وسيجئ بيان هذه القوي، أعني الحس المشترك، والخيال والمتخيلة، في المبحث الثامن عشر ان شاء الله تعالي.

ومنها: ما إذا غلب في المزاج واحد من الأخلاط الأربعة، فيري النائم أشياء متلونة بلون ذلك الخلط.

فعند غلبة الدم، يري أشياء حمراء، وعند غلبة الصفراء صفراء، وعند غلبة السوداء سوداء، وعند غلبة البلغم بيضاء، وبنوا علي ذلك الأصل أيضاً أخبار الأنبياء والأولياء عن المغيبات.

هل للأنبياء قدرة على معرفة الغيبيات؟

قالوا: قد يكون لبعض النفوس قوة، إماغريزية، أو مكتسبة بالمجاهدات المحمودة، والأعمال الصالحة، بحيث لا تقوي عوائق الحواس، والاشتغال بتدبير البدن علي عوقها، عن التوجه التام إلي عالم التجرد والاتصال بالمبادئ العالية، فينطبع فيها من صور المعقولات، المنطبعة في تلك المبادئ، بقدر صفاتها، ومناسبتها لها، كمرآة صقلت، وحوذي بها ما فيه نقوش كثيرة، يتراءي فيها من تلك النقوش، بقدر صقالتها.

وهؤلاء الكاملون، متفاوتوا الأحوال في ذلك الاطلاع، فمنهم من يتفق له شئ من ذلك أحياناً، ومنهم من يكون له أكثر وأدوم.

والمتناهون منهم، هم الأنبياء، فإنه يتيسر لهم ملاحظة جميع ما يمكن للبشر ملاحظته دفعة، أو قريباً من الدفعة.

ويتيسر لهم الإخبار عن المغيب، إذا طلب منهم إظهار آية في كثير من الأوقات، ولا يتيسر هذا لغيرهم.

ولهم خصلتان أخريان، يمتازون بهما عمن عداهم:

إحداهما: أنهم قادرون علي التصرفات في الأجسام العنصرية، تصرفات خارجة عن العادة، لكونها منقادة لإرادتهم، كما أن بدن كل شخص منقاد لإرادته.

وهذا ليس بمستنكر، إذ تعلق النفس بالبدن، ليس تعلق الحلول والانطباع فيه، بل تعلق التدبير والتصرف فيه.

فكما جاز أن تتصرف كل نفس في بدنها تصرفات اختيارية، كقيامه وقعوده، وهبوطه وصعوده، غير اختيارية، كحمرة الخجل، وصفرة الوجل، وارتعاده عند اشتداد خوفه، وسقوط من مشي علي رأس جدار عال، أو علي جذع موضوع فوق هوة عند تصوره السقوط، مع أنه كثيراً ما يكون ما يقع عليه، مشيه في الأرض، أقل عرضاً من ذلك.

وإذا جاز لكل نفس هذه التصرفات في بدن، وهو منقاد لها مع كونها خارجة عنه، جاز أيضاً أن يكون لنفس قوة التصرف في أبدان كثيرة، مع كونها خارجة عنها، فتحدث بإرادتها أمور خارقة للعادة، من رياح عاصفة، وزلازل شديدة، وحرق أجسام، وغرق أقوام، إلي غير ذلك.

ثانيهما: أن تكون قوتهم المتخيلة، بحيث تتمثل لها العقول المجردة، تماثيل وأشباحاً، يخاطبونهم بكلام مسموع منظوم، كما يري النائم في رؤياه الصادقة، أشخاصاً يخاطبونه ويسمعونه كلاماً منتظم اللفظ والمعني، ويظهر أيضاً حقيقته وصدقه بعد ذلك، وهذا ليس بمستنكر.

فإنه من شأن القوة المتخيلة، أن تبرز المعقول المرتسم في النفس، في معرض المحسوس، وتكسوها كسوة المشاهد، ثم تلقيه في الحس المشترك، علي صورة المحسوسات المتأدية إليه من الخيال.

فإذا صار الإنجذاب والإتصال بعالم القدس، ملكة لبعض النفوس، لتجربها عن الشواغل البدنية، وانقطاعها عن زخارف الدنيا الدنية، يتأتي لها مشاهدة المعقولات في اليقظة بأدني توجه.

والحاصل: أن النبي، من كانت قواه الثلاث في أعلي درجة كمال:

إحداهما: قوته العقلية النظرية، فإنها في أفراد الناس متفاوتة:

- فمنهم من يكتسب العلوم بمشقة عظيمة، في وجدان مقدماتها، وترتيبها علي ما ينبغي.

- ومنهم من يسهل عليه ذلك، علي مراتب متفاوتة.

- ومنهم من لا يحتاج في بعض النظريات إلي النظر والكسب، بل يتنبه له بتنبيه من غيره.

- ومنهم من لا يحتاج الي التنبيه من غيره، بل ينتقل ذهنه من تصوره النتيجة، إلي المقدمات مترتبة، فيحصل له من ذلك العلم، بالنتيجة بطريق الحدس.

- ومنهم من تحصل له القوة القدسية، فيصير عنده جميع العلوم النظرية، أو أكثرها، بمنزله الأوليات، فيلاحظها إما دفعة، أو في أقل زمان، من غير استعانة بشئ، ولكل من هذه الأحوال، مراتب متفاوتة كماً وكيفاً.

- ومنهم من ينتهي في البلادة، إلي حيث لا يتيسر تفهم شئ من النظريات له، وإن بولغ في السعي لتفهيمه، أو لا يفهم منها إلا شيئاً يسراً.

حكي: أن أحداً قرأ كتاب سيبويه [1] في النحو علي

(١) هو أبو بشرعمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء،، الملقب سيبويه: إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو. (١٤٨ - ١٨٠ هـ - ٧٦٥ - ٧٩٦ م) ولد في إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه. وصنف كتابه في النحو، لم يصنع قبله ولا بعده مثل، ورحل إلى بغداد، فناظر الكسائي. وأجازه الرشيد بعشرة آلاف درهم.وعاد إلى الأهواز فتوفي بها، وقيل :وفاته وقبره بشيراز.وكانت في لسانه حبسة. و «سيبويه» بالفارسية

السيرافي[1] فلما أتم الكتاب، قال له: أما أنت، فبارك الله عليك، وأما أنا، فلم أفهم منه حرفاً.

فنفس النبي، هي النفس القدسية، التي ارتقت في ذكائها وصفائها، إلى حيث قدرت أن تلاحظ جميع الموجودات، أو أكثرها، في أقل زمان.

وإليها الإشارة بقوله تعالي { كأنها كوكب دري * يوقد من شجرة مباركة * زيتونه لا شرقيه ولا غربية * يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار * نور علي نور }

ثانيها: قوته العلمية، فإنها أيضاً في الأشخاص متفاوته، كمالاً ونقصاناً.

رائحة التفاح.وكان أنيقا جميلا، توفي شابا. وفي مكان وفاته والسنة التي مات بها خلاف.نقلا عن : الأعلام للزركلي، وابن النديم : الفهرست ص٧٦.

(١) أبو سعيد الحسن بن عبدالله بن المرزبان السيرافي (٢٨٤- ٣٦٨هـ)، أبو سعيد النحوي القاضي. نسبته إلى بلدة سيراف إحدى بلاد فارس. درس ببغداد، القرآن والقراءات وعلوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض. أخذ علمه عن أبي بكر بن مجاهد، وأبي بكر بن دريد، وأبي بكر بن السراج، وأبي بكر المبرمان وغيرهم، درس علومه الأولى بسيراف، وخرج عنها قبل العشرين، ومضى إلى عُمان فتفقه بها، ثم عاد إلى سيراف.

قال أبو حيان التوحيدي في تقريظ السيرافي: أبو سعيد السيرافي شيخ الشيوخ، وإمام الأئمة معرفة بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافي والقرآن والفرائض والحديث والكلام والحساب والهندسة، أفتى في جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة فما وجد له خطأ ولا عثر له على زلة، له من التصانيف: شرح كتاب سيبويه الذي لم يسبق إلى مثله، وهو كتاب كبير وصفه ياقوت بأنه يقع في ثلاثة آلاف ورقة بخط مؤلفه في السليماني، فما جاراه فيه أحد، ولا سبقه إلى تمامه إنسان، هذا مع الثقة والديانة والأمانة والرواية. ومن كتبه أيضًا: كتاب ألفات القطع والوصل؛ أخبار النحويين البصريين؛ شرح مقصورة ابن دريد؛ الإقناع في النحو، لم يتمه، فأتمه ولده يوسف، وله أيضًا: كتاب شواهد كتاب سيبويه؛ الوقف والابتداء؛ صنعة الشعر والبلاغة؛ المدخل إلى كتاب سيبويه؛ جزيرة العرب. أنظر:"وفيات الأعيان" لأبن خلكان.

- فمنهم من ليس له قدرة تامه، علي استعمال أجسام بدنية، وهي لا تنقاد لإرادته، إما لكسلٍ غلب عليه، أو لسبب أخر.

- ومنهم - وهم الأكثر - ينقاد لهم بدنه، وهو يتصرف فيه كيف يشاء.

- ومنهم من لا يقتصر تصرفه علي بدن واحد، بل له قوة التصرف في أبدان وأجسام كثيرة وأكثر.

فنفس النبي، هي التى بلغت في قوتها المتصرفه حداً، إذا تطلعت إلي هبوب رياح، أو نزول مطر، أو هجوم صاعقة، أو خسف الأرض بشخص أو قوم، انقادت لها تلك الأجسام، ونفذ تصرفها فيها.

ثالثهما: قوته المتخيلة، فإنها قوة من شأنها، التصرف في صور المحسوسات، الكائنة في الخيال، من طريق الحس المشترك، بالتركيب والتحليل، بأن تصور مثلاً: إنسان ذا رأسين، أو إنسان بلا رأس.

وفي صور المعاني الجزئية، الكائنة في الحافظة، من طريق القوة الوهمية، بأن تبرز الولي، في معرض العدو، والعدو في معرض الولي.

وفي صور المعقولات أيضاً، بأن تلبسها لباس المحسوسات، وتلقيها في الحس المشترك، فتدركها النفس فى صورة المحسوسات، وتظنها متأديه إليه علي هيئتها من الخارج.

ولهذا سميت متصرفة أيضاً، وهي لا تسكن عن العمل نوماً ولا يقظة.

فمتخيلة غير النبي، لغلبة إنجزابها في اليقظة، إلي جانب صور المحسوسات، وما يتعلق بها، لا تتفرغ للاشتغال بصور المعقولات،

والتصرف فيها كثير اشتغال.

فإذا نام صاحبها، وركدت حواسه عن جذبها إلي جانبها، حصل لها زيادة فراغ، للتوجة إلي جانب المعقولات، فلهذا يري أكثر الناس في المنام، ما لا يري في اليقظة.

وأما متخيلة النبي، فقوية علي دفع مزاحمة الحواس إياها، وجذبها إلي جانبها، وذلك لانقطاع النبي عن عالم المحسوس، وشدة توجهة إلي عالم القدس، فلهذا يظهر له في اليقظة كثيراً، ما لا يظهر لغيره فيها إلا قليلاً.

هذا تقرير مذهبهم في التأصيل والتفريغ، واستدلو علي الأصل:

- أما في العقول: فبمثل ما مر، فالإستدلال علي كون الله تعالى عالماً بالأشياء من الدليلين.

لكن ثانيهما هنا، لا يجري بالنسبة إلي كل عقل، فيما هو مقدم عليه، ومبدأ له، بل في معلوماته، وقد مر ما يرد علي ذلك الاستدلال، فلا حجة إلي إيراده هنا.

- وإما في النفوس: وهو المقصود بالبحث هنا، فقالوا: قد ثبت أن حركات الأفلاك إيرادية، وأنه لابد لكل حركة جزئية من لإرادة جزئية، وإردة الشئ، لا تمكن بدون تصوره.

فالنفوس الفلكيه، عالمة بكل حركة تصدر عنها، وإذا كانت عالمة بالحركات، كانت عالمة بمسبباتها، أعني الأوضاع الحادثة، اللازمة للحركات، والنسب اللازمة لتلك الأوضاع، كالمقارنات، والتسديسات، والثليثات وغير ذلك، لأن العلم التام بالسبب، يوجب العلم بالمسبب، وإنما لا يلزم من علمنا بالأسباب، علمنا بجميع المسببات، لأنا لا نعلم

جميع الأسباب.

وما نعلمه منها، لا نعلمه علماً تاماً، لأن توجه نفوسنا إلي تدبير البدن، وتزاحم الإشغال عليها، وتجاذبها الي المحسوسات المتخالفة، عوقها عن العلم التام بالأسباب.

ولهذا إذا حصل لنا العلم بجميع أسباب شئ، يحصل لنا العلم بوقوعه البتة.

كما إذا علمنا - مثلاً - طلوع الشمس، وكون ثوب رطب مقابلاً لها، وعدم غيم، أو ساتر أخر، يحجب شعاعها عنه، فإنا نعلم البتة أنه سيجف.

وحينئذ: فهي عالمة بجميع الحوادث الكائنة في العالم، لأنها كلها مستندة إلي تلك الحركات، ومسببة عنها، بواسطة تلك الأوضاع والنسب، كما مرت إليه الإشارة في صدر الكتاب، فهي عالمة بجميع الكائنات، لا يعزب عن عملها مثقال زرة في الأرض ولا في السماوات.

والاعتراض عليه: أنا لا نسلم أن حركات الأفلاك إرادية، بمعني كونها بإرادة نفوس الأفلاك.

نعم، هي إراديه، بمعني: أنها بإرادة الله تعالي، وهذا لا يجديهم نفعاً.

ولئن سلم، فلا نسلم توقف كل حركة جزئية، علي إرادة وتصور جزئيين.

وقد مر بيان هذا في المبحث السابق، بما لا مزيد عليه.

ولئن سلم، فقولهم: " إن العالم التام بالسبب، يوجب العلم بالمسبب ".

ما المراد بالعلم التام بالسبب؟

إن أرادو به تصور السبب بكنهه، فلا نسلم أنه يوجب العلم بمسببه، وإنما يكون كذلك، لو كان السبب لازماً، بيناً للمسبب بالمعني الأخص، وليس كل مسبب بالنسبة إلي سببه كذلك.

وإن أرادوا به تصوره، مع التصديق بأنه سبب لذلك، فلا نسلم أن هذا حاصل بنفس الفلك.

ودلالة شبهتكم، لا تعدو عن أنه لابد لتلك النفوس من تصور الحركات الجزئية.

وهذا تصور لا يستلزم التصديق بكون الحركات أسباباً للأشياء الفلانية، فكيف بالتصديق بأن تلك الأشياء أيضاً أسباب لأشياء معينة أخر.

وهكذا إلي ما لا يتناهي، حتي يلزم علمها بجميع ما يستند إليها من الحوادث الغير متناهية.

علي ان ما ذكروه لو فرض تمامه، فامنا يعطى علمها بمسبباتها، لا باسببأبها ومبادئها، ومدعاهم: أنها عالمة بجميع الأشياء، فشبهتهم قاصرة عن مدعاهم.

وأما ما ذكروه من التفريغ، فليس إلا خَطَابة واهية، ليس لها مستند إلا الوهم.

والحق: إسناد ما يراه المذكورون، بل إسناد جميع الحوادث إلي إيجاد الله تعالي، إبتداءً بإرادتة واختياره، واعتقاد أن النبي يأتيه في يقظته الملك، وهو جسم لطيف، يتصور بأية صورة، ما شاء الله تعالي المصور، المنزه

عن التصور، ويتلو عليه كلام الله، ويسمعه ويفهمه كل ذلك، علي سبيل الحقيقة، لا بطريق التخيل والتوهم.

وقد يري ذلك الملك، غير النبي أيضاً، ممن يكون بحضرته، وقد لا يراه النبي، ولكن يسمع كلامه ويفهمه ويحفظه.

وبعد التجاوز عن طريق الحق، والعدول عن سنن الصواب، فهنا احتمال أخر، ليس بأبعد مما ذكروه، بل هو عسي أن يكون أقرب منه، وهو أن النفس الإنسانية، إذا كانت في جوهرها من العالم الروحاني، مقابلاً للإنتقاش بصور الكائنات، والعائق لها عن ذلك هو الاشتغال بتدبير البدن، وتوارد المحسوسات عليها كما ذكر، فإذا حصل لها نوع خلو عن ذلك العائق وصفاء، إما بسبب النوم، أو بسبب أخر، لم لا يجوز أن ينطبع فيها تلك الصور، من الأمور الخارجة، التي تلك صورها.

وما الحاجة إلى أن يقال: حصلت هذه الصور، من الصور الحاصلة في أشياء أخر؟ وما الدليل علي ذلك؟

وما ذكروا في بيان أمر النبوة، من اختصاص النبي بالخصال الثلاث، فغير تام، مع اعترافهم بأن وجود النبي واختصاصه بما يميزة عن الكل، واجب في العناية الأزلية.

أما ما ذكرو في الخاصة الأولي، من أن النبي يطلع علي جميع ما يمكن إطلاع البشر عليه، دفعة، أو قريباً من الدفعة، مع عدم إمكان اطلاع غيره علي مثل ذلك.

مع أن مذهبهم، أن النفوس متماثلة، متفقة الحقيقة، فمشكل، لأن المتماثلين يجوز علي كل منهما، ما يجوز علي الأخر، ويمتنع عليه ما

يمتنع علي الأخر.

وإذا كان كذلك، فلا يتميز بهذه الخصلة، النبي عن غيره، مع أن حصول هذه الخصلة - كما ذكروها - للنبي، غير ثابت بحجة قاطعة.

والاطلاع علي البعض، كما هو مقطوع به، مشترك بينه وبين غيره، فلا يكون مميزاً له.

وكذا ما ذكروه في الخاصة الثانية، من التصرفات الخارجة عن العادة في الأجسام العنصرية، فإن هذا أيضاً يقع من الولي، غير النبي، كما يشاهد وينقل بالتواتر.

بل مثل هذا يقع من غير الولي أيضاً، بأسباب مثل السحر، الذي مبدأه تأثير النفس الإنسانية، في جسم غير بدنها، فإن وقوع السحر وتأثيره، مقطوع بهما شرعاً وعرفاً.

ومثل الطلمسات، التي مبدأها تمزيج القوي السماوية بالأرضية، وذلك أن القوي السماوية، فواعل للحوادث، وللحوادث شرائط، بها تصير قابلة لتأثير تلك القوي فيها.

فمن عرف تلك القوي والشرائط، وقدر علي الجمع بينهما، تصدر منه آثار غريبة خارقة للعادة.

ومثل دعوة الكواكب، التي مبدأها الاستعانة بالفلكيات فقط.

ومثل العلم بالخواص، وهو معرفة خواص الأجسام السفلية، مثل جذب الحديد لحجر المغناطيس، وجذب التبن للكهرباء، وإنزال المطر للحجر المشهور في بلاد ما وراء النهر.

فإن عندهم حجراً، إذا ألقي في الماء، ينزل المطر.

ولقد وقع في زماننا، أنه شرب شخص في سمرقند من الماء الذي ألقي فيه ذلك الحجر، ثم أخرج منه من غير علمه بحال ذلك الماء، فدامت الأمطار في ذلك البلد، وتواترت حتي أدت إلي الإضرار بأهله.

فوقع في خواطرهم، أن ذلك بسبب الخاصية التي عرضت لهذا الشخص من شرب ذلك الماء، فطردوه من البلد، مع كونة من الأعيان المشاهير.

فإذا خرج من البلد، أقلع المطر ثمة، وانتقل إلي الموضع الذي كان ذلك الشخص فيه.

فإذا وقف أهل ذلك الموضع علي حاله، طردوه منه أيضاً.

وهكذا كان حاله إلي مدة سنتين تقريباً، ثم زالت عنه تلك الحالة، فرجع إلي سمرقند.

ومثل العزيمة، التي هي الإستعانة بالأرواح الساذجة، إلي غير ذلك من أسباب الأمور الغريبة، ومن أظهرها الإصابة بالعين، فإنها أمر محقق بدلائل الشرع والمشاهدة.

فعلم أن التصرف الخارج عن العادة في الأجسام العنصرية، ليس من خواص النبي، وما يقال أن الخاصة لا يجب أن تكون حقيقة، بل يجوز أن تكون إضافية، ليس بشئ، إذ المقصود إثبات أمور للنبي، يمتاز بها عن غيرة.

وما لم تكن الخاصة حقيقية، لا يميز صاحبها عن غيره.

ولا يرد علينا معاشر المللين في المعجزات، مثل ما أوردنا عليهم، لأنا نقول: كل الأمور بخلق الله تعالي وإرادته.

وهو لا يخلق خارق العادة عند دعوي النبوة كذباً، فمن اجتمع فيه دعوي النبوة، وظهور خارق العادة علي يدة، علم أنه نبي، وتميز به عن غيره مطلقاً.

فهذا الاجتماع خاصة، حقيقية للنبي من غير إشكال.

وأما الفلاسفة، فلما قالوا بتماثل النفوس، وبأن المتماثلين متكافئان فيما يجب لهما، ويمتنع عليهما، فلا محيص لهم عما أورد عليهم في الخاصتين.

وأما ما ذكروه في الخاصة الثالثة، ففساده أظهر من أن يخفي، إذ هو تنزيل للنبوة، التي هي أشرف أحوال الإنسان قدراً وخطراً، في أخس المراتب.

وهي أن أوامر النبي ونواهيه، مبنية علي خيالات محضة، لا حقيقة لها، وأوهام بحتة لا أصل لها، ككلام المبرسمين[1] والمجانين، إذ ظهور المجردات في صور محسوسة، ومصدر الصوت عنها حقيقة، محالان بإعترافهم.

ثم كيف تطابقت متخيلة جميع الأنبياء، علي إبراز الحق بزعمهم، من قدم العالم، وكون صانعه موجباً بالذات، وعدم جواز صدور متعدد من

(١) قيل أن المبرسم أو البرسام : هو علة يهذي بها المريض تجعله يتكلم بكلام غير معقول، وقيل : هو مريض بأعراض كأعراض الجنون، أنظر:لسان العرب لأبن منظور، والبيان والتبيين للجاحظ، والإمتناع والمؤانسة للتوحيد.

المبدأ الأول، إلي غير ذلك، في معرض ما ليس بحق، من الكلام الدال علي حدوث العالم، وأن الأول تعالي، موجد الجميع بالاختيار، وأمثال ذلك مما هو خلاف أرائهم الباطلة.

ولمَ أجمع الأنبياء المبعوثون لصلاح العالم وإرشاد الخلق إلي الحق، علي عدم بيان المراد من ذلك الكلام، بياناً واضحاً، بحيث لا يقع الخلق كلهم، إلا شرذمة قليلة، هم الفلاسفة في الجهالة والضلالة؟

وهل يرضي عاقل من نفسه، أن يتكلم بهذا، أو يقبله، بعد اعترافه بالنبوة، وبأن الحكمة فيها هداية الخلق؟

لكن من لم يجعل الله له نوراً، فما له من نور.